

الضربة المصيرية للإمام علي (ع) في غزوة الخندق

<"xml encoding="UTF-8?">



عند ما نزع بنو النضير عن أطراف المدينة ، توجه قسم منهم إلى خيبر ، وقسم إلى الشام ، وطفق رؤساؤهم يحرضون المشركين ويشجعونهم على التحالف مع اليهود ، وتهيئة جيش من جميع القبائل لمهاجمة المدينة بمؤازرة اليهود (1) .

وهكذا كان ؛ فقد تهيأ جيش ضخم قوامه عشرة آلاف ، ضم كافة المعارضين للحكومة الإسلامية الجديدة التي أسسها النبي (صلى الله عليه وآله) في المدينة وبدأ زحفه نحو المدينة (2) ، ومن هنا عُرفت هذه الغزوة بغزوة الأحزاب .

وقد شاور النبي (صلى الله عليه وآله) أصحابه حول كيفية مواجهة العدو ، فاقترح سلمان حفر خندق في مدخل المدينة ؛ لتعويق العدو . وتحقق ما أراد ، وأمر (صلى الله عليه وآله) أصحابه بحفر الخندق ، واشترك هو معهم في الحفر (3) ، فتعوق جيش العدو ، الذي كان يهجم بمهاجمة المدينة بكل غرور وخيلاء ، خلف الخندق ، وظل على هذه الحال شهراً تقريباً (4) ، حتى وقع في مأزق بسبب صعوبة الإمداد .

وفي ذات يوم عبر عمرو بن عبد ودّ الخندق ومعه عدد من فرسان العدو وشجعانه المشهورين (5) ، وصاروا أمام المسلمين ، وطلبوا أن يبرز إليهم أقرانهم ، فلم يجبههم أحد ، وكثروا نداءهم غير مرة ، وكان لعمرو صيته المخيف ، ففزع منه الجميع ، وحُبست الأنفاس في الصدور ، ولم تلق نداءاته المغرورة جواباً ، فأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله) أن يقوم إليه أحد ويقتل شره ، فلم يقم إلا أمير المؤمنين علي (عليه السلام) (6) .

ولما تقابلا قال (صلى الله عليه وآله) عبارته الخالدة : " برز الإيمان كله إلى الشرك كله " (7) .

وبعد قتال شديد عاجله الإمام بهجمة سريعة ، ففضى عليه ، وبلغت صيحة " الله أكبر " عنان السماء ، فلابد أصحابه بالفرار (8) . وتبدد جيش الأحزاب على ما كان عليه من شوكة وأبهة خيالية .

ويمكننا أن نفهرس دور الإمام العظيم في هذه الحرب على النحو الآتي :

1 - لما عبر عمرو بن عبد ودّ وأصحابه من موضع ضيق من الخندق ، استقر الإمام (عليه السلام) هناك مع جماعة ، فلم يتيسر للمشركين العبور بعدئذ (9) .

2 - كان قتل عمرو بن عبد ودّ مهمّاً وحاسماً ومصيرياً إلى درجة أنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال :

" لمبارزة عليّ بن أبي طالب لعمرو بن عبد ودّ يوم الخندق أفضل من أعمال أُمّتي إلى يوم القيامة " (10) .

وفي رواية : " لضربة عليّ لعمرو يوم الخندق تعدل عبادة الثقلين " (11) .

وحيثما تجدّل صنيدي العرب صريعاً بصق في وجه الإمام آيساً بئساً ، فوقف صلوات الله عليه ، وتمهّل ولم يبادر إلى حرّ رأسه لئلا يكون في عمله ذرّة من غضب .

3 - وبعد أن جدّله وصرعه ، وولّى أصحابه مدبرين تبعهم (12) ، وقتل منهم نوفل ابن عبد الله (13) .

4 - لما ضرب الإمام (عليه السلام) رجل عمرو وقضى عليه ، ألقى تراب الذلّ والخوف والرعب على وجوه المشركين ، وأقعدهم حيارى مهزومين منهارين (14) .

5 - قتل الإمام (عليه السلام) عمراً ، بيد أنّه ترفعّ عن سلب درعه الثمين إذ " كان يضرب بسيفه من أجل الحقّ " لا غيره . . . ولم يخفّ كلّ هذا الترفعّ والجلال والشمم عن الأنظار ، حتى إنّ أخت عمرو نفسها أثنت عليه (15) .

1 - تاريخ اليعقوبي : كانت وقعة الخندق . . . في السنة السادسة بعد مقدم رسول الله بالمدينة بخمسة وخمسين شهراً ، وكانت قريش تبعث إلى اليهود وسائر القبائل فحرّضوهم على قتال رسول الله ، فاجتمع خلق من قريش إلى موضع يقال له : سلّع (16) ، وأشار عليه سلمان الفارسيّ أن يحفر خندقاً ، فحفر الخندق ، وجعل لكلّ قبيلة حدّاً يحفرون إليه ، وحفر رسول الله معهم حتى فرغ من حفر الخندق ، وجعل له أبواباً ، وجعل على الأبواب حرساً ؛ من كلّ قبيلة رجلاً ، وجعل عليهم الزبير بن العوّام ، وأمره إن رأى قتالاً أن يقاتل . وكانت عدّة المسلمين سبعمائة رجل .

ووافى المشركون فأنكروا أمر الخندق ، وقالوا : ما كانت العرب تعرف هذا ! وأقاموا خمسة أيّام ، فلمّا كان اليوم الخامس خرج عمرو بن عبد ودّ وأربعة نفر من المشركين : نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي ، وعكرمة بن أبي جهل ، وضرار بن الحطّاب الفهري ، وهبيّة بن أبي وهب المخزومي . فخرج عليّ بن أبي طالب إلى عمرو بن عبد ودّ فبارزه وقتله ، وانهزم الباقيون ، وكبا (17) بنوفل بن عبد الله بن المغيرة فرسه ، فلحقه عليّ فقتله (18) .

2 - السنن الكبرى عن ابن إسحاق : خرج - يعني يوم الخندق - عمرو بن عبد ودّ فنادى : من يبارز ؟ فقام عليّ (رضي الله عنه) وهو مقنّع في الحديد فقال : أنا لها يا نبيّ الله ، فقال : إنّه عمرو ، اجلس .

ونادى عمرو : ألا رجل ! وهو يؤتّبهم ويقول : أين جنّتكم التي تزعمون أنّه من قُتل منكم دخلها ؟ أفلا يبرز إليّ رجل ؟ ! فقام عليّ (رضي الله عنه) فقال : أنا يا رسول الله ، فقال : اجلس .

ثمّ نادى الثالثة وذكر شعراً ، فقام عليّ فقال : يا رسول الله ، أنا ، فقال : إنّه عمرو ! قال : وإن كان عمرو ! فأذن له رسول الله (صلى الله عليه وآله) . فمشى إليه حتى أتاه وذكر شعراً .

فقال له عمرو : مَنْ أَنْتَ ؟

قال : أنا عليّ .

قال : ابن عبد مناف ؟

فقال : أنا عليّ بن أبي طالب .

فقال : غيرك يا بن أخي من أعمامك من هو أَسَنُّ منك ؛ فَإِنِّي أكره أن أُهريق دمك .

فقال عليّ (رضي الله عنه) : لَكِنِّي والله ما أكره أن أُهريق دمك !

فغضب فنزل وسلّ سيفه كأَنَّهُ شعلة نار ، ثمّ أقبل نحو عليّ (رضي الله عنه) مغضباً ، واستقبله عليّ (رضي الله عنه) بدرقته ، فضربه عمرو في الدرقه ففقدّها وأثبت فيها السيف ، وأصاب رأسه فشجّه ، وضربه عليّ (رضي الله عنه) على حبل العاتق فسقط وثار العجاج ، وسمع رسول الله (صلى الله عليه وآله) التكبير ، فعرف أنّ عليّاً (رضي الله عنه) قد قتله (19) .

3 – الإرشاد عن الزهري : جاء عمرو بن عبد ودّ وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة ابن أبي وهب ونوفل بن عبد الله بن المغيرة وضرار بن الخطّاب – في يوم الأحزاب – إلى الخندق ، فجعلوا يطوفون به ؛ يطلبون مضيقاً منه فيعبرون ، حتى انتهوا إلى مكان أكرهوا خيولهم فيه فعبرت ، وجعلوا يجولون بخيلهم فيما بين الخندق وسلّج ، والمسلمون وقوف لا يُقدِّم واحد منهم عليهم . وجعل عمرو بن عبد ودّ يدعو إلى البراز ويُعرِّض بالمسلمين ويقول :

ولقد بحثت من النداء * بجمعهم هل من مبارز

في كلّ ذلك يقوم عليّ بن أبي طالب من بينهم لبيارزه ، فيأمره رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالجلوس ؛ انتظاراً منه ليتحرّك غيره ، والمسلمون كأنّ على رؤسهم الطير ؛ لمكان عمرو بن عبد ودّ ، والخوف منه ، وممّن معه ووراءه .

فلَمَّا طال نداء عمرو بالبراز وتتابع قيام أمير المؤمنين (عليه السلام) قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله):

أَدْنُ مِنِّي يا عليّ ، فدنا منه ، فنزع عمامته من رأسه وعمّمه بها ، وأعطاه سيفه ، وقال له : امضِ لشأنك ، ثمّ قال : اللهمّ أعنه . فسعى نحو عمرو ومعه جابر بن عبد الله الأنصاري ؛ لينظر ما يكون منه ومن عمرو ، فلما انتهى أمير المؤمنين (عليه السلام) إليه قال له : يا عمرو ، إنَّك كنت في الجاهليّة تقول : لا يدعوني أحد إلى ثلاث إلّا قبلتُها أو واحدة منها ! قال : أجل . قال : فَإِنِّي أدعوك إلى شهادة أن لا إله إلّا الله ، وأنّ محمداً رسول الله ، وأنّ تُسلم لرَبِّ العالمين .

قال : يا بن أخٍ آخر هذه عنيّ . فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام) : أما إنَّها خير لك لو أخذتها ، ثمّ قال : فهذهنا أخرى . قال : ما هي ؟ قال : ترجع من حيث جئت . قال :

لا تُحَدِّث نساء قريش بهذا أبداً . قال : فها هنا أخرى . قال : ما هي ؟ قال : تنزل فتقاتلني . فضحك عمرو وقال : إنّ هذه الخصلة ، ما كنت أظنّ أنّ أحداً من العرب يرومني عليها ! وإني لأكره أن أقتل الرجل الكريم مثلك ، وقد كان أبوك لي نديماً .

قال عليّ (عليه السلام) : لكنّي أحبّ أن أقتلك ، فانزل إن شئت ! فأسف عمرو ونزل ، وضرب وجه فرسه حتى رجع .

فقال جابر (رحمه الله) : وثارَت بينهما قترة ؛ فما رأيتهما ، وسمعت التكبير تحتها ، فعلمت أنّ عليّاً (عليه السلام) قد قتله ، وانكشف أصحابه حتى طفرت خيولهم الخندق ، وتبادر المسلمون حين سمعوا التكبير ينظرون ما صنع القوم ، فوجدوا نوفل بن عبد الله في جوف الخندق لم ينهض به فرسه ، فجعلوا يرمونه بالحجارة ، فقال لهم : قتلة أجمل من هذه ! ينزل بعضكم أقاتله ! ! فنزل إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فضربه حتى قتله . ولحق هبيرة فأعجزه ، ف ضرب قريوس (20) سرجه ، وسقطت درع كانت عليه ، وفرّ عكرمة ، وهرب ضرار بن الخطاب .

فقال جابر : فما شبّهت قتل عليّ عمراً إلّا بما قصّ الله تعالى من قصّة داود وجالوت حيث يقول : (فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ) (21) (22) .

4 – المستدرك على الصحيحين عن ابن إسحاق : ثمّ أقبل عليّ (رضي الله عنه) [أي بعد قتله عمراً] نحو رسول الله (صلى الله عليه وآله) ووجهه يتهلّل ، فقال عمر بن الخطاب : هلاًّ أسلبته درعه ؛ فليس للعرب درعاً خيراً منها ! فقال : ضربته فاتّقاني بسوءته ، واستحييت ابن عمّي أن أسلبه (23) .

5 – المناقب لابن شهر آشوب : لما أدرك [عليّ (عليه السلام)] عمرو بن عبد ودّ لم يضربه ، فوقعوا في عليّ (عليه السلام) ، فردّ عنه حذيفة ، فقال النبيّ (صلى الله عليه وآله) : مه يا حذيفة ؛ فإنّ عليّاً سيذكر سبب وقفته . ثمّ إنّه ضربه ، فلمّا جاء سأله النبيّ (صلى الله عليه وآله) عن ذلك ، فقال :

قد كان شتم أمّي ، وتفل في وجهي ، فخشيت أن أضربه لحظّ نفسي ، فتركته حتى سكن ما بي ، ثمّ قتلته في الله (24) .

6 – الإرشاد عن أبي الحسن المدائني : لما قتل عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) عمرو بن عبد ودّ نعي إلى أخته ، فقالت : من ذا الذي اجتراً عليه ؟ ! فقالوا : ابن أبي طالب . فقالت : لم يعدّ يومه [إلّا] (25) على يدِ كُفء كريم ، لا رقأت دمعتي إن هرقثها عليه ؛ قتل الأبطال ، وبارز الأقران ، وكانت منيّه على يدِ كُفء كريمٍ قومه ، ما سمعت أفخر من هذا يا بني عامر ! ثمّ أنشأت تقول :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله * لكنّ أبكي عليه آخر الأبد

لكنّ قاتل عمرو لا يُعاب به * من كان يُدعى قديماً بيضة البلد (26)

7 – الإمام عليّ (عليه السلام) : إني قتلت عمرو بن عبد ودّ ، وكان يُعدّ بألف رجل (27) .

8 - رسول الله (صلى الله عليه وآله) - عند مبارزة الإمام عليّ (عليه السلام) عمراً : برز الإيمان كلّهُ إلى الشرك كلّهُ (28) .

9 - عنه (صلى الله عليه وآله) : لمبارزة عليّ بن أبي طالب لعمر بن عبد ودّ يوم الخندق أفضل من أعمال أُمّتي إلى يوم القيامة (29) .

10 - عنه (صلى الله عليه وآله) : لَضرِبَةُ عليّ لعمر بن عبد ودّ يوم الخندق تعدلُ عبادة الثقلين (30) .

11 - المستدرك على الصحيحين : قد ذكرت في مقتل عمرو بن عبد ودّ من الأحاديث المسندة ومعاً (31) - عن عروة بن الزبير وموسى بن عقبة ومحمّد بن إسحاق بن يسار ما بلغني - ؛ ليتقرّر عند المنصف من أهل العلم أنّ عمرو بن عبد ودّ لم يقتله ولم يشترك (32) في قتله غير أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، وإثماً حملني على هذا الاستقصاء فيه قول من قال من الخوارج : " إنّ محمّد بن مسلمة - أيضاً - ضربه ضربة وأخذ بعض السلب " ، ووالله ما بلغنا هذا عن أحد من الصحابة والتابعين ، وكيف يجوز هذا وعليّ (رضي الله عنه) يقول : ما بلغنا أنّي ترقّعت عن سلب ابن عمّي فتركته !! وهذا جوابه لأمر المؤمنين عمر بن الخطّاب بحضرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) (33) .

12 - شرح نهج البلاغة عن أبي بكر بن عيّاش : لقد ضرب عليّ بن أبي طالب (عليه السلام) ضربةً ما كان في الإسلام أيمنَ منها ؛ ضربته عمراً يوم الخندق (34) .

-
- (1) تاريخ الطبري : 2 / 565 ، السيرة النبويّة لابن هشام : 3 / 225 ، الكامل في التاريخ : 1 / 568 ، المغازي : 2 / 441 ، تاريخ الإسلام للذهبي : 2 / 283 .
- (2) تاريخ الطبري : 2 / 570 ، السيرة النبويّة لابن هشام : 3 / 230 ، المغازي : 2 / 444 ، تاريخ الإسلام للذهبي : 2 / 284 و ص 287 .
- (3) تاريخ الطبري : 2 / 566 ، السيرة النبويّة لابن هشام : 3 / 226 ، الكامل في التاريخ : 1 / 568 ، المغازي : 2 / 445 و ص 454 .
- (4) تاريخ الطبري : 2 / 572 ، السيرة النبويّة لابن هشام : 3 / 233 ، الكامل في التاريخ : 1 / 569 ؛ الإرشاد : 1 / 96 .
- (5) تاريخ الطبري : 2 / 574 ، السيرة النبويّة لابن هشام : 3 / 235 ، الكامل في التاريخ : 1 / 570 ، المغازي : 2 / 470 ، تاريخ الإسلام للذهبي : 2 / 290 ، تاريخ يعقوبي : 2 / 50 .
- (6) السنن الكبرى : 9 / 223 ، المغازي : 2 / 470 ، السيرة النبويّة لابن هشام : 3 / 235 و 236 ؛ الإرشاد : 1 / 100 .
- (7) شرح نهج البلاغة : 19 / 61 ؛ كنز الفوائد : 1 / 297 ، الطرائف : 35 ، إرشاد القلوب : 244 ، عوالي اللآلي : 4 / 88 و فيه " الكفر " بدل " الشرك " .
- (8) تاريخ الطبري : 2 / 574 ، الكامل في التاريخ : 1 / 570 ، السيرة النبويّة لابن هشام : 3 / 236 ، تاريخ الإسلام للذهبي : 2 / 290 .

- (9) تاريخ الطبري : 2 / 574 ، السيرة النبوية لابن هشام : 3 / 235 ، الكامل في التاريخ : 1 / 570 ، تاريخ الإسلام للذهبي : 2 / 290 ؛ الإرشاد : 1 / 98 .
- (10) المستدرك على الصحيحين : 3 / 34 / 4327 ، تاريخ بغداد : 13 / 19 / 6978 ، شواهد التنزيل : 2 / 14 / 636 ، المناقب للخوارزمي : 107 / 112 ، الفردوس : 3 / 455 / 5406 ؛ إرشاد القلوب : 245 .
- (11) عوالي اللآلي : 4 / 86 / 102 وراجع الطرائف : 519 والمستدرك على الصحيحين : 3 / 34 / 4328 .
- (12) الإرشاد : 1 / 102 .
- (13) تاريخ الطبري : 2 / 574 ؛ الإرشاد : 1 / 105 ، تاريخ اليعقوبي : 2 / 50 .
- (14) كنز الفوائد : 1 / 298 .
- (15) الإرشاد : 1 / 107 ؛ المستدرك على الصحيحين : 3 / 36 / 4330 .
- (16) موضع بقرب المدينة (معجم البلدان : 3 / 236) .
- (17) الكُتُوب : السقوط للوجه ، كُبا لوجهه : سقط . وكُبا - أيضاً - : عثر (لسان العرب : 15 / 213) .
- (18) تاريخ اليعقوبي : 2 / 50 .
- (19) السنن الكبرى : 9 / 223 / 18350 .
- (20) القُربُوس : جنو السرج (لسان العرب : 6 / 172) .
- (21) البقرة : 251 .
- (22) الإرشاد : 1 / 100 ، إعلام الوری : 1 / 380 ، كشف الغمّة : 1 / 204 نحوه وراجع المستدرك على الصحيحين : 3 / 35 / 4329 والمغازي : 2 / 470 .
- (23) المستدرك على الصحيحين : 3 / 35 / 4329 .
- (24) المناقب لابن شهر آشوب : 2 / 115 ، الدرجات الرفيعة : 287 ؛ كيميائي سعاد : 1 / 571 .
- (25) أثبتنا ما بين المعقوفين من إرشاد القلوب .
- (26) الإرشاد : 1 / 107 ، إرشاد القلوب : 245 وراجع المستدرك على الصحيحين : 3 / 36 / 4329 .
- (27) الخصال : 579 / 1 عن مكحول .
- (28) كنز الفوائد : 1 / 297 ، الطرائف : 35 ، إرشاد القلوب : 244 ، تأويل الآيات الظاهرة : 2 / 451 / 11 عن حذيفة ، عوالي اللآلي : 4 / 88 / 113 وفيه " الكفر " بدل " الشرك " ؛ شرح نهج البلاغة : 19 / 61 .
- (29) المستدرك على الصحيحين : 3 / 34 / 4327 ، تاريخ بغداد : 13 / 19 / 6978 ، شواهد التنزيل : 2 / 14 / 636 ، المناقب للخوارزمي : 107 / 112 كلّها عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جدّه ، الفردوس : 3 / 455 / 5406 عن معاوية بن حيدة ، ينابيع المودة : 1 / 412 / 5 عن حذيفة بن اليمان ؛ إرشاد القلوب : 245 .
- (30) عوالي اللآلي : 4 / 86 / 102 .
- (31) الوُمعة : الدفعة من الماء (تاج العروس : 11 / 534) .
- (32) في الطبعة المعتمدة : " نشترك " ، والتصحيح من طبعة أخرى .
- (33) المستدرك على الصحيحين : 3 / 36 / 4331 وراجع تاريخ الطبري : 2 / 574 والسيرة النبوية لابن هشام : 3 / 235 وتاريخ الإسلام للذهبي : 2 / 290 .
- (34) شرح نهج البلاغة : 19 / 61 ؛ الإرشاد : 1 / 105 وفيه " أعزّ " بدل " أيمن " .